ثال جميل على ساعات الحائط
عثمانية في القرن السابع عشر

السلطان محمد الرابع

فترة الحكم: ١٦٤٨-١٦٨٧

السلطان العثماني التاسع عشر

الألقاب والأسماء الشعرية: آوجي (أي الصياد)

اسم الأب: السلطان إبراهيم

اسم الأم: خديجة تُرخان سلطان

محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول،
٢ يناير/كانون الثاني سنة ١٦٤٢

العمر عند اعتلاء العرش: ٧ سنوات

سبب وتاريخ الوفاة: النقرس أو الكرب النفسي أو السم،
ولا يُعرف تاريخ الوفاة

مكان الوفاة وموقع الضريح: أدرْنه،
ودفن في مقبرة والدته خديجة تُرخان سلطان بالقرب
من المسجد الجديد بإسطنبول

أبناؤه: أحمد الثالث، ومصطفى الثاني، وبايزيد،
وإبراهيم، وسليمان

بناته: خديجة سلطان، وفاطمة سلطان، وأمي سلطان

لوحة بفن المنمنمات تصور السلطان محمد الرابع، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "كبيرْ مُصَوَّر سلسله نامه" أي (صور متخيلة لشجرة العائلة العظمى)

أصبح محمد الرابع السلطان الجديد وهو في سن السابعة من عمره، ذلك العمر المبكر جدا لاعتلاء العرش، بفضل دعم جدته كُوسَمْ سلطان ورجال الدولة وقوات الانكشارية بعد عزل والده السلطان إبراهيم في ٨ أغسطس/آب سنة ١٦٤٨. ولما كان محمد الرابع أصغر سلطان في التاريخ العثماني، فلم يكن قادرا بالطبع على حكم الدولة، وكان من المحتوم أن يمارس من أجلسوه على العرش سلطتهم إلى أبعد مدى. وبالتالي انقضت السنوات الثمانية الأولى في صراعات على السلطة بين الجدة والأم ومناصريهم. وفي اليوم العاشر من سلطنة محمد الرابع كان السلطان إبراهيم قُتل من قِبَل من نصبوا ابنه سلطانا على الدولة العثمانية خوفا من اعتلاء أبيه على العرش مرة أخرى.

في بادئ الأمر شهدت الدولة العديد من الفوضى والقلاقل؛ فقد أدى كلٌّ من إعدام والد السلطان الصغير، ودخول جدته كوسم سلطان في معركة مريرة ضد الصدر الأعظم صوفو محمد باشا، وعدم دفع رواتب وحدات الفرسان بالجيش في ميعادها، وانغماس قوات الانكشارية في السياسة إلى نشوب "واقعة ميدان السلطان أحمد" لتكون أول تمرد في عهد محمد الرابع، وذلك في ٢٥ من أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٦٤٨. ورغم نجاح الانكشارية في قمع التمرد فإن دورهم في التعامل معها أكسبهم نفوذا أكبر في شؤون الدولة. وفي الوقت الذي انتشرت خلاله الثورات في إسطنبول والأناضول، استمر البنادقة في سد مضيق الدَرْدَنِيل، واتسعت دائرة الاستياء تجاه الانكشارية الجامحة في أرجاء العاصمة السلطانية. كما ارتفع معدل التضخم عندما احتفظ زعماء الانكشارية بالـ"آقجة" (مسكوكة فضية عثمانية) ذات القيمة الحقيقية لأنفسهم ودفعوا للجنود رواتبهم بآقجة فضية أقل قيمة. وكان السلطان الطفل مُبعدا عن شؤون الدولة، وكان يتم تسليته وإلهاؤه عن الإدارة من خلال اصطحابه في حفلات صيد في "كاغد خانه" التي تقع بطول نهر صغير يصب في القرن الذهبي، وكذلك حديقة "كولهانه" القريبة من القصر. وبعد فترة قصيرة أصبح الصيد هوايته المفضلة، بل إنه سيتحول لإدمان بالنسبة له لاحقا، ولذلك سُمي "الصياد".

كانت الأم الكبرى أو الجدة كوسَم سلطان قد عَيَّنت أتباعها في المناصب الإدارية الرئيسية، وقد مهّد ذلك الأسلوب التحكمي في التوظيف الطريقَ إلى حدوث تعقيدات غريبة لاحقا، وأصبح القصر العثماني في نهاية الأمر مسرحا لصراع مستمر بين زوجة ابن وحماتها. ثم نجحت الوالدة الصغرى خديجة تُرخان سلطان في التخلص من حماتها كوسم سلطان بمساعدة كبار موظفي القصر. وبالتالي فشلت كوسم سلطان في تنفيذ خطتها، وهي إحلال سليمان الثاني مكان محمد الرابع، لأنها اعتقدت أنها تستطيع التلاعب بشكل أفضل بأم سليمان، التي كانت أكثر سذاجة فيما يبدو من تُرخان سلطان، أم محمد الرابع. لعبت خديجة تُرخان سلطان دورا عميقا في إدارة الدولة لخمس سنوات

متوالية، ترقى خلالها "أحمد تارْخُونْجُو باشا" إلى منصب الصدارة العظمي عام ١٦٥٢ شريطة ألا يعارض سلطته أحد فيما يخص الشؤون المالية. حاول تارْخُونْجُو أحمد باشا الموازنة بين الدخل والمصروفات من خلال قوانين صارمة، لكنه بات محل سخط وازدراء وتم الاستغناء عنه بُعيد فرضه ضرائب على موظفي الحكومة وتقدّمه باستدعاء لخفض النفقات إلى القصر.

وبالإضافة إلى التغيّر المستمر في الصدور العظام اندلع تمرد جديد؛ لأن الانكشارية باتوا يتقاضون رواتبهم بالآقْجَة الفضية الأقل قيمة التي تموّلها قروض الإدارة. تجمع المتمردون في ميدان السلطان أحمد، ودعوا السلطان إلى الحضور في الفناء الأول بقصر "طوب قابي" لعقد اجتماع طارئ لم يتحدد موعده مسبقا. وطالبوا في الاجتماع بأن يسلم السلطان محمد الرابع لهم ثلاثين شخصا من كبار موظفي القصر. رفض السلطان الشاب طلبهم في البداية، لكن الضغوط المتواصلة أجبرته على الموافقة، فأمر بإعدام الموظفين الكبار الذين طلبهم المتمردون في ٤ مارس/آذار سنة ١٦٥٦.

وكان تغيير الصدر الأعظم في عام ١٦٥٦ فرصة عظيمة تضاف إلى رصيد السلطان محمد الرابع؛ فقد تحولَ هذا التغيير إلى تجديدات أساسية في شؤون الحكم. وبدأ الصدر الأعظم الجديد محمد كوبْرِيلِي باشا، بعد أن قبلت السلطانة الوالدة ترخان سلطان بشروطه المسبقة لتولي منصبه الجديد، بدأ ما يعرف بـ"عهد كوبريلي"، الذي تولى خلاله عدد من أفراد عائلة كوبريلي منصب الصدارة العظمى. استكمل محمد كوبريلي باشا ما كان ينقص محمد الرابع بسبب صغر سنه وهما: الكفاءة والخبرة الإدارية. وقام محمد كوبريلي باشا أولا بإحباط جهود جماعية تسعى للتمرد، وبشكل عام وجه ذلك الرجل جلّ جهوده نحو تجديد شباب الدولة.

قام محمد كوبريلي باشا بقمع عدة ثورات، كما أجبر البنادقة على إزالة سدهم من الدَرْدَنِيل. ثم خلفه ابنه فاضل أحمد باشا وسار وفقا لوصية والده محمد باشا على فراش الموت. وبذلك وُرّث منصب الصدارة العظمى لأول مرة في التاريخ العثماني. وخلال عهد فاضل أحمد باشا كوبريلي حققت الدولة العديد من الإنجازات والانتصارات على غرار القرون السالفة، حتى إن بعض المؤرخين يطلقون على ذلك العهد عهد "نهضة الدولة العثمانية". ومما تجدر الإشارة إليه أن العثمانيين انتصروا على البندقية وفرنسا في البحر، وسحق جيشهم القوات النمساوية والبولندية في الحرب، كما فتحوا حصن أويفار (نوفي زامكي الآن) على نهر نيترا عام ١٦٦٤. ووُقّعت كذلك معاهدة فاسفار مع النمسا التي أُجبرت على الاعتراف بالسيادة العثمانية على ترانسيلفانيا بالإضافة إلى دفع تعويضات الحرب. ونصت المعاهدة أيضا على أن حصني أوفيار ونوجراد يخضعان لإدراة الدولة العثمانية. ونجح "كوبرولو زادة فاضل أحمد باشا" أيضا في إنهاء حصار كريت من خلال الاستيلاء على كانديا عام ١٦٦٩.

obeikandl

الخزانة الذهبية لعباءة الرسول ﷺ

وفيما كان الصدر الأعظم الشاب فاضل أحمد باشا في حملته على كانديا ظل السلطان محمد الرابع في المورة وسيّر حملة إلى مدينة كامانيتشه ضد مملكة بولندا مصحوبا بموكب عظيم عام ١٦٧٢. وخلال الحصار، الذي بدأ يصعب بسبب هطول الأمطار الغزيرة، قام السلطان بشيء استثنائي تماما بالنسبة للعادات العثمانية السلطانية؛ فقد تخفى في ملابس جنديّ عاديّ وشارك في الهجوم. وانتهى الأمر إلى أن انضمت "بوجاش" و"بودوليا" إلى الأراضي العثمانية بمعاهدة "بوجاش"، وهي المعاهدة الأخيرة التي أضافت الدولة أراضي جديدة إلى أراضيها. وعاد السلطان إلى أدِرْنه بعد رحلة متعبة.

وبعد ثلاث سنوات أعلن الملك البولندي جون سوبيسكي (جون الثالث) الحرب على الدولة العثمانية، وفي المقابل حشد السلطان محمد الرابع جيشه، لكنه أوقف الزحف قبل مواجهة العدو لاقتراب فصل الشتاء. وفي العام التالي زحفت القوات العثمانية مرة أخرى وهزمت البولنديين، وجددت معاهدة بوجاش. لكن فاضل أحمد باشا توقف عن الزحف مع السلطان بسبب سوء حالته المرضية. وتوفي في النهاية تاركا السلطان في حالة من الحزن العميق. وعيّن السلطان مكانه "مرزيفونلو قرة مصطفى باشا"، الذي كان ينتمي أيضا إلى عائلة كوبريلي.

دارت أول حرب بين العثمانيين والروس في ذلك الوقت تقريبا بسبب قَوزاق أوكرانيا. وبعد حملتين أبرمت الدولة العثمانية معاهدة مع الروس دامت عشرين عاما. والواقع أن السلطان محمد الرابع كان يستجيب إلى حد ما لسياسات مرزيفونلو قرة مصطفى باشا الخارجية التي اتسمت بالهجومية.

واجه مرزيفونلو قرة مصطفى باشا فرنسا فيما يخص قضايا إقليم طرابلس الغرب (ليبيا اليوم)، وبالغ في رد فعله على القصف المدفعي الفرنسي لجزيرة ساكيز في بحر إيجة قبالة الساحل الغربي للأناضول، وضغط على الفرنسيين كي يدفعوا تعويضات حرب.

قباب داخلية لـ "يَني جامي" (المسجد الجديد) في "أَمِينُونُو" بإسطنبول.

منظر للكعبة والمسجد الحرام والمنطقة المجاورة، نحو عام ١٩١٠.

مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرْخَان من الداخل، من تصوير كوانين (Ouannin, Turquie) عام ١٨٥٣. وما يميز هذه المقبرة أنها المكان الوحيد الذي يضم مقابر خمسة سلاطين عثمانيين؛ حيث تضم المقبرةُ رفاتَ السلطانة الوالدة خديجة ترخان وابنها السلطان محمد الرابع وابنيه السلطان مصطفى الثاني والسلطان أحمد الثالث وكذلك حفيديه السلطان محمود الأول والسلطان عثمان الثالث، وجميعهم مدفونون في هذه المقبرة بحديقة "يَنِي جامي" بإسطنبول.

وفي تلك الأثناء بدأت النمسا الكاثوليكية في ممارسة ضغوط سياسية ودينية على المَجَريين البروتستانت المتحالفين مع السلطة العثمانية. ورغم أن فاضل أحمد كوبريلي كان قد رفض في السابق طلب المساعدة من جانب أمير ترانسيلفانيا بسبب إبرام معاهدة فاسفار مع النمسا، فقد وافق مرزيفونلو قَرَ مصطفى باشا هذه المرة على تلبية طلب الاستغاثة المجري. ورغم معارضة عدد من رجال الدولة للفكرة، تمكن مرزيفونلو قَرَه مصطفى باشا من إقناع السلطان، وسيّر حملة على النمسا. وفي عام ١٦٨٢ شارك السلطان محمد الرابع أيضا في تلك الحملة التي وصلت حتى بلجراد. وضرب الجيش العثماني حصارا على فيينا بشكل ناجح في عام ١٦٨٣ للمرة الثانية بعد السلطان سليمان، وكان معزّزا بقوات ترانسيلفانيا وولاشيا ومولدافيا والقرم.

فطلب الإمبراطور النمساوي دعم الصليبيين، وبتشجيع من البابا جاء الهابسبورجيون والفرنسيون والبولنديون لإنقاذ فيينا. وخلال الحصار الذي دام شهرين لم يقم مراد كيراي، خانُ القرم، بالحيلولة دون تقدم الجيش البولندي بقيادة جون سوبسكي (Jean Sobieski) وهو في طريقه إلى فيينا من خلال نهر الدانوب، في حين كانت فيينا على وشك السقوط. ووصلت القوات البولندية لتحيط بالجيش العثماني، الذي أصبح بين شقي الرحى. ووسط ذلك التحول غير المتوقع في الأحداث سحب مصطفى باشا قواته إلى بلجراد بنجاح كاف لتجنب الخسائر الفادحة في الأرواح، حيث قام بوضع إستراتيجية هجوم جديد. وفي الوطن شعر عدد من رجال الدولة بالغيرة تجاه تنامي شعبية مرزيفونلو قره مصطفى باشا، واشتهوا منصب الصدر الأعظم فأغروا صدر السلطان محمد الرابع عليه ونصحوه بالتخلص من الصدر الأعظم. وفي النهاية استلم مرزيفونلو قره مصطفى باشا مذكرة موته. ورغم أنه كان يبعد مئات الأميال عن العاصمة، وكان القائد العام لجيش عثماني قوي، استسلم مرزيفونلو قره مصطفى باشا للأمر، وصلى ركعتين، وطلب تنفيذ الأمر بطريقة مخلصة وعجيبة. ومثّل الفشل الثاني في حصار فيينا نقطة تحول في التاريخ العثماني، فقد تسبب في وقوع سلسلة متصلة من الهزائم المتعاقبة، مما يوحي بأن مسار الأحداث التي تلت كان يمكن أن يختلف تمام الاختلاف، لو كان مرزيفونلو قد أتيحت له فرصة أخرى.

وكان للفشل العثماني في حصار فيينا آثار أكثر اتساعا أيضا؛ فقد حفز الصليبيين وشجعهم على فكرة أنهم يستطيعون إخراج العثمانيين من وسط أوروبا. وعقدت بالفعل كل من النمسا وبولندا وروسيا والبندقية ومالطة "تحالفا مقدسا" بتشجيع البابا وبقيادته. ورغم أن الجيش العثماني هزم البولنديين في بادئ الأمر فإن الجيش النمساوي تقدم عبر نهر الدانوب وهاجم ترانسيلفانيا والمجر. فوقعت إسترجوم وبلجراد، وذُبح المسلمون المقيمون في بودا بشكل واسع ومؤسف بعد سقوط المدينة. وعلى جبهات أخرى للحرب استولت القوات البولندية على بودوليا وتسللت إلى مولدافيا، وهاجم البنادقة سواحل المورة ودالماشيا بدعم من أسبانيا ومالطة. وفي النهاية انفصلت المورة وسقطت أثينا في أيدي البنادقة.

وتسببت سلسلة الخسائر في إحداث موجة من السخط في المجتمع العثماني؛ وراجت الإشاعات التي تقول إن "السلطان شغل نفسه بحفلات الصيد بدلا من الاهتمام بأمور الدولة". وثار الجيش العثماني، الذي مُني بهزيمة ساحقة في موهاج، وبدأ في التحرك تجاه إسطنبول، مستغلا حجة الرواتب المتأخرة كذريعة للثورة. وكان هدفهم الأساسي هو خلع السلطان محمد الرابع. وفيما كان الجيش العثماني متوجها إلى عاصمته الأم إسطنبول استولى النمساويون بسهولة شديدة على الأراضي التي كان العثمانيون قد فتحوها بصعوبة بالغة وجهد جهيد. لم يتغير شيء حتى بعد أن أثبت السلطان محمد الرابع لجنوده الذين وصلوا إسطنبول أنه تم تغيير الصدر الأعظم بالفعل، وأقسم أنه لن يذهب للصيد مرة أخرى. واستصدر الجنود المتمردون فتوى تنفيذية تُخوّل لهم خلع السلطان محمد الرابع لانغماسه في الترويح عن نفسه بحفلات الصيد وإعاقته شؤون الدولة. وخلفه سليمان الثاني عام ١٦٨٧. وحُبس السلطان محمد الرابع في جناح شيمشرليك، أو جناح حدائق نبات البقس في قصر "طوب قابي"، ثم نُقل إلى مدينته المفضلة أدِرْنه. وفي تلك الفترة سيّر السلطان سليمان الثاني حملة على المجر. أما محمد الرابع، الذي عاصر أيضا حكم أخيه الآخر أحمد الثاني، فتوفي في أدِرْنه، ليكون ثاني سلطان يموت خارج إسطنبول بعد سليمان القانوني.

تولى السلطان محمد الرابع العرش في سن صغير جدا، ولذلك لم يتمكن من تلقي تعليم شامل كأمير شاب، بل يبدو أن معلميه ربّوه ليصبح صيادا لا سلطانا. وقد حرص المتصارعون على السلطة في القصر على إبقائه حبيس القصر على نحو صارم. لكن تعيين الصدور العظام الأكفاء من عائلة كوبريلي ساهم في إحياء الدولة من عدة وجوه. ولم تظهر عدم

حقيبة لحفظ القرآن يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر

صلاحية السلطان للحكم سوى بعد وفاة أُمّه تُرخان سلطان وانفصال عائلة كوبريلي عن الإدارة. ورغم أن أولاده كانوا يمتلكون حقا ثابتا في تولي العرش فقد أبقى على حياة إخوته، وهو ما مهد الطريق لهم لاعتلاء العرش بعد عزله.

كان محمد الرابع طيب القلب شديد الكرم. وعاش حياة عادية إلى حد كبير رغم امتلاكه كل الإمكانات لعيش حياة بذخ وترف باعتباره سلطان دولة عظمى. وكان يمتلك شغفا كبيرا بالتاريخ، ويرعى الفنون. وخلال عهده الطويل قام الرحالة المشهور أوليا جلبي بتأليف كتابه المعروف "سياحتنامة" في عشرة أجزاء، والذي يصف فيه رحلاته التي بدأت من مدينته الأم إسطنبول وشملت الأناضول والقوقاز والشرق الأوسط ومصر في شمال إفريقيا والروملي ووسط أوروبا وشرقها وشمالها وصولا إلى بحر البلطيق. وخلال عهده أيضا قام المؤلف التركي الكلاسيكي المشهور بـ"بُخوريزادة مصطفى عِطري" (توفي عام ١٧١٢) بتأليف العديد من مقطوعاته الدينية الموسيقية على عدة مقامات، ومنها التكبيرات الذي تقال أيام التشريق الذي مازال مشهورا في تركيا حتى اليوم. وقد قام السلطان محمد الرابع بعدة إصلاحات ضخمة في مكة وضواحيها، وبخاصة نظام المياه في وادي عرفة من أجل راحة الحجيج.

مرسوم السلطان محمد الرابع بمنح أراض في بعض القرى الخاضعة لولاية مقاطعة نيجروبونت المخصصة للمسجد الذي أنشأته السلطانة الوالدة في باهجة كابي، بإسطنبول.

okelkanar.com